

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابُ رَحْمَةٍ لِّلْعَالَمِينَ ١٠ مُحَرَّم ١٤٤٥ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابُ رَحْمَةٍ لِّلْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وَقَدْ بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ الرَّحْمَةَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْمُتِمَامِلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُدْرِكُ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَالَمِينَ؛ حَيْثُ خَلَقَ سُبْحَانَهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ رَحْمَةً لِّجَمِيعِ خَلْقِهِ؛ حَتَّى يُسْتَرَّاحَ بِاللَّيْلِ، وَيُسْعَىٰ بِالنَّهَارِ لِتَحْصِيلِ الْأَرْزَاقِ، وَعِمَارَةِ الْكَوْنِ، كَمَا أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ الْمَطَرَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وَقَدْ بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، وَقَالَ تَعَالَى لِّخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ النَّاسَ إِلَى رَجَاءِ رَحْمَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، وَبَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَدَعَا الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالذُّنُوبِ لِعَدَمِ الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَسَاقِ بِسَنَدِهِ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الشَّامِ ذُو بَأْسٍ، وَكَانَ يَفْدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَفَقَدَهُ عُمَرُ فَقَالَ: مَا فَعَلَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؟ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يُتَابِعُ فِي هَذَا الشَّرَابِ. قَالَ: فَدَعَا عُمَرَ كَاتِبَهُ، فَقَالَ: اكْتُبْ: مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذُو الطَّوْلِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ. ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ادْعُوا اللَّهَ لِأَخِيكُمْ أَنْ يَقْبَلَ بِقَبْلِهِ، وَأَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا بَلَغَ الرَّجُلُ كِتَابَ عُمَرَ جَعَلَ يَقْرُؤُهُ وَيُرَدِّدُهُ، وَيَقُولُ: غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ، قَدْ حَذَرَنِي عُقُوبَتُهُ، وَوَعَدَنِي أَنْ يَغْفِرَ لِي. وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ»، وَزَادَ: فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْعَ، فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَبَرَهُ قَالَ: هَكَذَا فَاصْنَعُوا، إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَاكُم زَلَّ زَلَّةً فَسَدِّدُوهُ، وَوَفَّقُوهُ، وَادْعُوا اللَّهَ لَهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَيَتَأَدَّبُ بِآدَابِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ،

وَالْتَرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مُخْتَصَرًا، وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ [النَّخْلُ الْمُلتَفُّ الْمُجْتَمِعُ]، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَاتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ [مُؤَخَّرُ رَأْسِهِ]، فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟»، فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَأَ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ» [تُكِدُّهُ وَتُتْعِبُهُ].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ امْتَلَأَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ بِالْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَعْدَائِهِ وَالْمُنَاوِينَ لَهُ. فَهَا هُوَ ﷺ لَا يَدْعُو عَلَى قَبِيلَةٍ دَوْسٍ مَعَ أَنَّهَا كَفَرَتْ وَأَبَتْ، بَلْ يَدْعُو لَهَا بِالْهِدَايَةِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ وَأَصْحَابُهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكْتُ دَوْسٌ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ». قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: قَالَ الْمُهَلَّبُ: وَالِدُ الدَّعَاءِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَخْتَلِفُ مَعْنَاهُ، فَإِذَا كَانُوا مُنْتَهَكِينَ لِحَرَمِ الدِّينِ وَحَرَمِ أَهْلِهِ، فَالدَّعَاءُ عَلَيْهِمْ وَاجِبٌ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ سَارَ بِسَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ

الْمَعَاصِي وَالْإِنْتِهَاكِ، فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِكُوا حُرْمَةَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ وَجَبَ أَنْ يُدْعَى لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ حِينَ سُئِلَ أَنْ يَدْعُو عَلَى دَوْسٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَائْتِ بِهِمْ».

وَهَا هُوَ ﷺ لَا يَدْعُو عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ، مَعَ شِدَّةِ إِيْذَانِهِمْ لَهُ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». بَلْ إِنَّهُ ﷺ صَبَرَ وَرَحِمَ وَحَلَّمَ عَلَى قَوْمِهِ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَيَّ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وَهَا هُوَ ﷺ يَصْبِرُ وَيَحْلُمُ عَلَى مَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ بَعْدَ مَا تَمَكَّنَ مِنْهُ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصْفَةَ بَنِي خَلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»، قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.